٢ ـ محمد ديب

قلت فيما سبق إن الأدب الجزائرى أدب جديد ، ذو خصائص قومية بارزة ، يستمد ذاتيته ونسغه من البيئة التى يعيش فيها الشعب الجزائرى ، ولم يحل الاستعمار الذى ناء بكلكله البغيض على الجزائر دون بروز هذه الخصائص . وهذا الأدب وإن كتب بلغة فرنسية فهو يعبر من وراء الحجاب اللغوى عن أعمق الأسس الروحية والاجتماعية التى يقوم عليها ماضى الشعب الجزائرى وحاضره ، كما يعكس بوضوح صراع هذا الحاضر مع الأوضاع الاستعمارية التى تصده عن البروز وتقف دون نموه .

نحن الآن مع كاتب جزائرى آخر هو محمد ديب مؤلف رواية « البيت الكبير » ولد فى تلمسان فى ٢١ تموز سنة ١٩٢٠ ، وبعد أن درس فى مسقط رأسه ثم فى مدينة وُجدة زاول عدة مهن مكنته من الاتصال بالطبقات الشعبية الكادحة ، والاطلاع على نفسيات أهلها وأحوالهم المعاشية ، فقد عمل صانع سجاد ،

ومحاسباً فى محل تجارى ، ثم معلماً وصحفيا إلى أن انقطع للأدب نهائيا فكانت باكورة أعماله الأدبية رواية « البيت الكبير » هى من أروع الروايات فى تصوير الحياة الجزائرية فى بؤسها وشقائها وتناحر ناسها وآمالهم وإنسانيتهم وقساوتهم ، وتجرى حوادثها سنة ١٩٣٩ ومركزة حول البطل عمر وهو صبى دون البلوغ يعيش مع أمه الأرملة عانية فى بيت كبير للأجرة تقطن غرفه أسر العمال الفقراء ، وهو أشبه بخلية النحل يتكدس أفراد كل أسرة فى غرفة واحدة ، وتسوده فى النهار ضوضاء الأولاد وصراخهم ونداءات النساء ولغطهن وثرثرتهن وحركتهن المستمرة وفوق هذا فقد « احتجزت غرف الدار فى الليل عدداً كبيراً من الأطفال حتى إذا طلع الصباح قذفت بهم إلى صحن الدار فى فوضى وضوضاء لا مثيل لهما ، فالأطفال ذوو اللعاب السائل ، والوجوه اللامعة من أثر المخاط يمرون واحداً واحداً ، وكان من لا يستطيع منهم المشى يزحف رافعاً استه إلى العلاء ، وكانوا يبكون ويزأرون جميعاً ، ولم تكن الأمهات ولا بقية النساء يرين فائدة فى الاهتمام بالأمر . »

ولم يقف المؤلف فى تصوير حياة سكان الدار اليومية موقف المراقب أو الملاحظ الحيادى بل أشركنا من خلال

الولد عمر . وعمر هو المؤلف فى صغره ، الذى يعيش مع أمه عانية وأختيه عيوشة ومريم فى غرفة واحدة عيشة بؤس رهيب يسيطر عليهم شبح الجوع والحرمان واليأس من الغد حتى إن عانية كانت تخاطب ابنها فى ساعة من ساعات ضجرها وبرمها من العيش قائلة : « هذا كل ما تركه لنا أبوك الفاشل ، الشقاء . ولقد غيب وجهه فى الأرض وانهالت على جميع أنواع البؤس ، فكانت نصيبى فى حياتى كلها ، إنه الآن هادئ فى قبره . لم يفكر يوماً بإدخار شىء من المال فلصقتم بى كما يلصق العلق . لقد كنت سخيفة ، كان الأجدر بى أن أهجركم فى الأزقة وأفر إلى إحدى الجبال الجرداء ! »

ولم يتعمد المؤلف فى النواحى الاجتماعية والنفسية التى يبدو على ضوئها أشخاص روايته طلب الإصلاح والتخفيف من آلام مواطنيه بل اكتفى ببسط أمام أعين القارئ لوحات متتابعة بلغ من مهارته فى تصويرها أنها ترسخ فى الذهن حتى يصعب على المرء الخلاص منها ، فيشعر بعد الانتهاء من مطالعة الرواية بغثيان عاطفى ، مبهم ، ثائر ، يخالطه الأسى والإشفاق على هذا الشعب المعذب يخلف بعده شعوراً بالنقمة والسخط

على الاستعمار والمستعمرين أصل هذا البلاء ، وسبب هذه الرزايا المحزنة .

والرواية على صغر حجمها تجمعت فيها صور ولوحات عن جميع المشاكل الاجتماعيـــة والاقتصادية والنفسية التى خلقتها الأوضاع الاستعمارية فى الجزائر . كمحاربة اللغة العربية التى هى سلاح القومية . وعمليات التمثل الرامية إلى ذوبان الشخصية الجزائرية فى المحيط الفرنسى ، وسياسة الإفقار والتجهيل التى هى من أبرز صفات الاستعمار الفرنسى كل هذا يؤديه محمد ديب فى سطور قليلة بليغة دقيقة لا نجد مثيلها إلا عند كبار الروائيين . مثال على ذلك وصفه درس الأخلاق الذى يلقيه المعلم حسن على تلاميذه الصغار ؛ فقد سألهم مرة ما هو الوطن ؟

فلم يفهم الصغار ما تعنيه هذه الكلمة الغريبة التى بقيت بعد السؤال « كأنها معلقة فى الفضاء تتأرجح » فما كان من أحد التلاميذ الراسبين إلا أن رفع أصبعه مجيباً : إن فرنسا هى وطننا الأم !

وكان الجواب وحده سبباً لسلسلة من التساؤلات فى نفس الولد عمر يعالجها بعقليته البسيطة وغريزته العفوية ، فهو يعلم

أن فرنسا عاصمتها باريز ، وأن هؤلاء الفرنسيين الذين يشاهدهم فى المدينة يأتون من فرنسا . وهم لذلك يركبون البحر فى الغدو والرواح فكيف يصح والحالة هذه أن تكون فرنسا أمه ، وأمه هى عانية ، وهى فى البيت وليس له أمان : إذن لقد اكتشف الكذبة : ففرنسا ليست أمه ، وهكذا فقد كان الصغار يرغمون على تعلم الأكاذيب لينجوا من القصاص والضرب بقضبان الزيتون !

ولكن المعلم حسن لم يكن ليترك هذه الفرصة تمر دون أن يفهم تلاميذه فى شىء من العناء والحرج أن الوطن هو أرض الآباء ، وهو البلد الذى استوطنه أهله منذ عدة أجيال : حتى إذا جاءه الأجانب من الخارج ليحتلوه أصبح الوطن فى خطر ، فهؤلاء الأجانب أعداء يجب على أهل البلاد أن ينتصبوا فى وجوههم ليردوهم من حيث أتوا ولو أدى هذا إلى التضحية بحياتهم جميعاً ، وأن الوطنيين هم الذين يحبون وطنهم ، ويعملون لخيره وصالحه !

وتجرى حياة الولد عمر كغيرها من حيوات أشباهه من الأولاد المغمورين الهزيلين الحفاة العراة « ذوى الشفاه السود وأعضاء العنكبوت والعيون المتوهجة بنار الحمى ، يملأون أزقة

الجزائر الضيقة ودروبها المظلمة لا هدف لهم فى الحياة ، ولا أمل فى العيش ، ألفوا الفقر وألفهم ، ولصقوا بالشقاء ولصق بهم تمر بهم أيام يتضورون بها جوعاً فلا تجد عانية أم عمر لإسكات هذا الجوع فى أحشاء بنيها بدا من المراوغة : فتعللهم بالقدر التى تغلى على النار ، وليس فيها سوى الماء ، كما كانت تفعل تماماً العجوز زمن عمر بن الخطاب فينام الأولاد بعد أن أخرسهم الإعياء ، وأرخى النوم بثقله الرصاصى أجفانهم ، ناموا لأن صبرهم فى انتظار الطعام قد نفد ، ولأن أبدانهم الهزيلة لم تعد تستطيع المقاومة طويلا !

إن هذا الجوع الذى يتراءى فى كل صفحة من صفحات الرواية ذاته الذى يجعل الأم تصيح بلسان الشعب الجزائرى : « نحن فقراء ، ولكن لماذا نحن فقراء ، إن أمها لم تكن تجيبها على سؤالها ، وقال بعضهم إن هذا مشيئة القدر ، وقال آخرون : إن الله وحده يعلم لماذا نحن فقراء ، ولكن هل هذا يكفى ، ولعل الأشخاص الكبار يعرفون الجواب » !

وتثور مشاكل الواقع الجزائرى الأليم من خلال المناضل الذى أسماه المؤلف حامد سراج ويظن أنه محمد ديب بعد بلوغه العشرين ، ينطق باسمه ، ويعبر عن آرائه وأفكاره الثورية

تجاه ما يعانيه الجزائريون من الظلم الاجتماعى : إن حامد سراج الذى لاحقه رجال الأمن من مكان إلى مكان ، وفاجأوا البيت الكبير مرات للقبض عليه مروّعين النساء والأطفال هو نفسه — الذى وقف خطيباً فى العمال الزراعيين الذين جاءوا من أقاصى الجزائر لسماعه فى بلد يسوده الإرهاب والنظام البوليسى : « إن عمال الأرض لا يستطيعون العيش بهذه الأجور التى يقبضونها ، فهم سيتظاهرون بقوة ، يجب أن نضع حدا لهذا الشقاء ، إن العمال الزراعيين هم أولى ضحايا الاستغلال المنتشر فى أنحاء البلاد ، إن أجر العامل عشرة فرنكات يوميا وهو أمر غير مقبول ، يجب أن يطرأ تحسن فورى على حياة العمال الزراعيين ، ويجب العمل بقوة لبلوغ هذا الهدف إن العمال المتحدين يعرفون كيف ينتزعون النصر من المستعمرين وحكومة الحاكم العام ، وهم مستعدون أبداً للنضال » .

وكما أن حالة العمال فى المدن لم تكن بأحسن من حالة عمال الريف ، ففى الرواية مقاطع تصور هؤلاء فريسة للبطالة المتفشية بين أرباب جميع المهن وهم كلهم يعانون الجوع والحرمان ، ويشتغل نساؤهم وأولادهم أيضاً ولكن دون جدوى وهذا ما جعل أم عمر تصيح قائلة : « . . . حتى ولو عملنا طوال

الحياة لما بقى لنا فى نهايتها سوى ملاجئ العجزة والشحاذة وإذا جاء الموت قبل ذلك حمدنا مجيئه ؛ فالموت لنا غطاء من ذهب، وإذا لم يأت هذا الموت أو لم يرض بنا ؛ حتى إذا عجزنا عن العمل وظللنا على قيد الحياة فتلك هى المصيبة الكبرى ، وإذا لم يسع إلينا القبر حينئذ سعينا إليه ، وإذا استطعنا شريناه بالموت ، لقد عشنا على هذه الأرض وانتهى كل شىء فنكون بذلك قد شهدنا شقاءنا إذ لم يبق شىء يغرينا فى هذه الدنيا . »

وفى الرواية صور فنية رائعة تدل على أصالة الكاتب ودقة ملاحظته وامتلاكه ناصية التعبير عن الحقيقة الإنسانية والاجتماعية التى يحياها أبطال روايته الممثلين لأغلبية الشعب الجزائرى ومن هذه الصور الموفقة قوله فى وصف البيت الكبير فى فصل قائظ : « كان الهواء فى الخارج يهتز فيتساقط كالرماد الأشهب ، كل شىء قد غسل فى جحيم من النور ، وكان الأولاد يصطدمون فى كل لحظة بالحواجز التى نصبها حرّ آب الجاف ، وكانت السماء فى حالة غليان تقىء عجيجاً من الذباب تجلبه الروائح المنبعثة من الحفر ، وكانت هذه النهارات تقذف الحى بروائح جيفية منتنة قوية ، عنيدة لا تستطيع ضربات الهواء ولا هبوط الحرارة فى الليل تبديدها » .

ومن قوله فى وصف بطله عمر النائم فى فراشه : « وكان عمر لا يفتأ عن التقلب فى فراشه ، وقد استولى عليه الأرق : وكانت ثيابه تزعجه ، وفى الهزيع بدأت الحكة تنتاب كل جسمه ، فكانت الأظافر تكشط طويلا البطن والأليتين والفخذين وكان البق عندما تسيطر الظلمة ينساب من مخبئه متسللا إلى فرش النائمين ومع أن الحيطان كانت مطلية بالكلس فكان يرى كثيراً منه ، وكانت الأم عانية تضىء الغرفة مراراً فى الليل وتسحق عدداً منه ، وفى النهار كنت ترى خيوطاً سمراء طويلة تركتها الأصبع التى قعست البق على الحائط . »

وقوله فى وصف قرية فى أعلى الجبل : « يسكن القرويون فى حفر فى الجبل ، والرجال والنساء والأطفال والحيوانات ، وتقع مقبرة القرية فوق رؤوسهم على المرتفع ، وهكذا يسكن الأحياء تحت الأموات » .

وقوله : « وكان ضوء المصباح الكهربى الضعيف ، المجرد عن العاكس ، المعلق فى السقف يثقب الليل » .

تلك هى لمحة عن رواية البيت الكبير التى جعل منها محمد ديب رواية الجزائر القومية والتى حقق بها رسالة الأديب الذى يكشف عن الحقائق التى يعيش عليها الشعب الجزائرى

ولعل فى إظهار هذه الحقائق الاجتماعية إنارة للطريق الثورية التى سلكتها الجزائر نحو حياة أفضل وعيش أحسن .

إن محمد ديب أديب جزائري فذ ؛ وقد ظهرت بعض نواحى عبقريته من خلال رواية « البيت الكبير » التى صور بها شعب الجزائر فى المدن ؛ ويظهر أن محمد ديب عازم على التوسع فى تصوير الحياة الشعبية الجزائرية ، والغوص فى أعماقها المجهولة ، فقد أتبع روايته الأولى رواية أخرى أسماها « الحريق » صوّر بها حياة الريف ، وبؤس الفلاحين والعمال الزراعيين ومظاهر صراعهم مع المستعمرين الذين انتزعوا منهم أرضهم جوراً ، وحرموهم القوت الضروري بعد أن جعلوا منهم أجراء ، مساكين ، محرومين من الحد الأدنى للحقوق الإنسانية .

وقد جعل محمد ديب قرية « بنى بوبلين » مسرحاً لروايته ، وهى قرية جبلية تشرف على سهول يسكنها المستعمرون ، وتجرى الحوادث بين المنطقة الجبلية الجرداء التى يقطنها الفلاحون المكدون ، والسهول الخصبة التى يستغلها وينعم بخيراتها المستعمرون . فالمنطقتان إذن تمثلا ن الصراع بين الفقر والغنى ، والحرمان واليسر ، والمغتصب المغلوب على أمره والغاصب المتمادى فى عدوانه . ومظاهر البؤس وإن تعددت فى الريف

فهي نتيجة لعلة واحدة هي الاستعمار وما يجره فى أثره من ظلم ومآس . وإذا كان الجزائرى المدنى هو ذلك الرجل الذي يتضور جوعاً ، الحافى القدمين ، الذى لا يستر جسمه سوى أسمال قذرة ، فإن الفلاح الجزائري أسوأ منه حالا ، وإن تغير الوسط بعض الشيء ، ولذا فإن الولد عمر بطل رواية « البيت الكبير » الذى نقله المؤلف إلى الريف ليتمرس بهذه الحياة الخشنة القاسية لم يعجب من بؤسه ولم يتمرد عليه عندما شاهد أمثاله من أطفال الريف الذين يشبهون كما يقول محمد ديب. « الجراد لهزالهم وضعفهم » ، فإن « ثيابهم عبارة عن خليط من الخلق المجموعة ، ينتعلون فى أرجلهم جلود الخراف مشدودة بخيطان « المصيص » ، ويركضون حفاة فى أغلب الأحيان ، تفتحت عيونهم ذوات الأحداق السمراء والخضراء على أرض جرداء تركت لهم ، يهيمون على وجوههم فى شكل عصابات ، ويغمرهم المرح وسط الوحل وغبار الطرقات ، وإذا كان يغلب على أطفال المدن الخفة والحدة والطيش فإن أطفال الريف رُضاء ، قد أكسبتهم عشرتهم للحيوانات فى قراهم النائية المنعزلة انكماشاً وسكينة وفهماً أكبر للشقاء ! » .

وقد أولع محمد ديب بالتصوير ، وروايته ملأى باللمحات

السريعة الخاطفة تعبرّ كل واحدة منها عن فكرة اجتماعية أو صورة واقعية ، أو خاطرة نفسية ، ولعل من أجمل صوره تلك المقارنة التي عقدها بين الأولاد الجزائريين البؤساء المشردين وبين أولاد الأوربيين المستعمرين القاطنين فى الجزائر ، وكان المؤلف مسوقاً بحكم بطل روايته الولد عمر إلى الإكثار من وصف الأولاد والأطفال وسرد حوادثهم لأن الطفولة التعسة هى من أهم المشاهد فى تلك البلاد حيث حرم تسعون بالمائة من نعمة العلم والنور قال : « كان الأولاد الجزائريون يلعبون فى شكل عصابات صغيرة وهم دوماً على أهبة الفرار أمام رجال الشرطة الذين يطاردونهم فى كل مكان ، قد ألبسوا أردية عتيقة ، بالية ، ذوات أكمام مشمرة عند المفصلين وفى أرجلهم أحذية رجالية ، صفر الوجوه ، عيونهم سوداء ، ينظرون باستغراب إلى الناس والأشياء ، هم نشيطون لا يفتأون عن التشاجر وملاحقة بعضهم بعضاً ، وبما أنهم مكرهون ومضطهدون من قبل المدنيين وجب عليهم الفرار فى كل لحظة يتبعهم غضب الناس ، إنهم يمتهنون الشحاذة وفى بعض الأحيان النشل والسرقة ، ينظرون بعيون شاخصة ثابتة إلى الرجال والنساء والأولاد الأوربيين ، ينظرون إليهم بل يحملقون بانتباه متجمع

مما يظهرهم أسن مما هم عليه فى الحقيقة ، ينظرون بصورة غريزية إلى ثياب الأوربيين الجديدة وأجسامهم النظيفة السليمة التى لم تعرف الجوع : تبدو عليهم مظاهر السعادة والشعور بالطمأنينة والأمن والصيانة ، فيهم صفات الأدب واللطف والتهذيب التى يبرزونها كثياب العيد والأطفال الأوربيون يخشون عادة أطفال العرب ، وإذا أرادت أمهاتهم أن يخفنهم صرخن مهددات « سأنادى العربى » !

ولاشك فى أن الأطفال الجزائريين ذوو حيوية مبكرة لا تلبث أن تنطفئ رويداً على مر السنين يقتلها سياق البؤس الرتيب والجهل والتعب المتراكم ولعله أيضاً إدمان الخمرة والسجون .

وقد يمكن أن يكونوا غير هؤلاء . . » ويستطرد محمد ديب فى وصف نفسية الأطفال المحرومين فيقول : « وهكذا فإنهم سريعو الحركة ، صامتون قد انتصب أمامهم الآن عالم من القيود والسدود الذى يشعرون بقوته دون أن يفهموا معناه ، فهم يظهرون بغتة من أطراف المدينة تحركهم رغائب غامضة مبهمة . . . فإن أقل حاجة يقذف بها إليهم كالعلب الفارغة ، واللعب المكسورة والجرائد المصورة التى لا قيمة لها تجعلهم

obeikandl.com

يغرقون فى إعجاب ذهولى ، فيتنازعون ملكيتها بضراوة تخلع على هذه الأشياء التافهة قيمة الأشياء النادرة المثالية ، وكل من يحتفظ بالحاجة بعد معركة أخيرة يحق له أن يرفع غنيمته رمزاً للنصر» .

أما الفلاحات الجزائريات فى قرية بنى بوبلين فهن « ذوات بشرة سمراء ضاربة إلى الشقرة كالعسل أو الذهب ، ولكن هذا لا يدوم طويلا . . . فسرعان ما تغدو أجسامهن كأجسام الحمالين ، تعلو أرجلهن التى تطأ الأرض شقوق عميقة ، يجررن أجساماً هزيلة تبرز منها الأضلاع . . . هذا مع الجوع الهائل الذى يخالط نظراتهن » .

والرواية من خلال الحوادث والأوصاف واللوحات الفنية ذات هدف اجتماعى يظهر إحساس الفـــلاحين والعمال الزراعيين بحالتهم البائسة ، وبدء الوعى عندهم الذى أخذ فى أول الأمر شكل تذمر وشعور غامض بالظلم ، هذا ويعمل على إيقاظ الفلاحين ، وإنارة السبيل أمامهم وتجسيد أمانيهم وتبلور رغباتهم المبهمة التى تصطرع فى نفوسهم ، والتمهيد لحياة أفضل وأحسن ، وتوضيح نواحى الظلم الاجتماعى الذى يعانون أقول : يعمل على خلق كل هذا مناضلون ذوو تجارب ونضج

وإيمان بحيوية وإمكانيات الشعب الجزائرى فى زحزحة المستعمرين عن مواقعهم . ففى الرواية تسيطر شخصيات حامد السراج الداعية الاشتراكى الذى يلاحقه المستعمرون ، والكوماندار ، وابن أيوب وغيرهم ، فهم الذين يدفعون بنى قومهم إلى التمرد والمطالبة بحقوقهم واسترداد ما أخذ منهم جوراً ، ولكل من هذه الشخصيات أساوبه وطريقته ولهجته وأفكاره ولكنهم جميعاً يتلاقون فى نقطة واحدة هى إيقاظ الروح الجزائرية التى تراكمت عليها منذ سنة ١٨٣٠ رواسب وطبقات كثيفة استعمارية كادت تودى بمعالمها القومية وشعورها الوطنى .

ومن الطريف أن يتعرف القارئ من خلال هؤلاء الأشخاص إلى المعضلات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والقومية التى خلقها الاستعمار بقصد أو دون قصد فى الجزائر ، فكل واحد من هؤلاء يحمل بين جنبيه المأساة الجزائرية فى شقيها المادى والإنسانى فالكوماندار — وهو لقبه الذى اكتسبه من الجندية فحل محل اسمه الأصلى الذى نسيه الناس — شخصية محببة تمثل التوثب والأمل بالخلاص ، والكوماندار كسيح فقد ساقيه فى الحرب العالمية الأولى وقد « لف ما تبقى من ساقيه المبتورتين إلى الركبتين بخرق كثيفة حتى صارتا تشبهان فى سماكتهما

عمودين رخاميين مبتورين » إن الكوماندار هذا هو صاحب الحلم الغريب الذى قصه على الطفل عمر قائلا : « كان القمر يجرف الزبد من أعالى الفجوات التى تفغر أفواهها بين الهضاب . حتى خيل للناس أن الوقت ليس بليل ، فقد كان الهواء والأرض يتألقان حتى صار من الممكن تمييز كل باقة من باقات الحشيش ، وكل مدرة من مدر الأرض ، فكان الهواء والأرض والليل تتنفس ببطء ، وفجأة سمع وقع حوافر تضرب الأرض فيرن صداها فى القرية ، فانتصب الفلاحون مذعورين ، واقتربت الضجة أكثر فأكثر حتى غدت كأنها رعد ينتقل من أول القرية إلى أقصاها وهرب النوم من عيون الفلاحين ، ولحظ الذين جلسوا على أبواب أكواخهم تحت جدران المنصورة حصاناً أبيض لا سرج له ولا لجام ولا فارس يعلوه تهتز لبدته من شدة العدو . . واختفى الحصان العجيب فى الظلام ، وبعد دقائق عاد العدو من جديد يطرق الليل ، وظهر الحصان عند أسوار المنصورة وبعد أن طاف حول المدينة القديمة اختفى من جديد ، وكانت الأبراج العربية التى قاومت الخراب تلقى بخيالاتها القوية فى الضياء الليلى ، ثم عاد الحصان يدور حول المدينة القديمة ، وعند مروره طأطأ الفلاحون رؤوسهم واعترى

قلوبهم الاضطراب والكآبة ولكنهم لم يرتجفوا بل تذكروا أولادهم ونساءهم قائلين : « أَعُدْ يا حصان الشعب فى الليل ، فى ساعات الخير والنكد ، فى ضوء الشمس والقمر » .

ويتابع الكوماندار قوله : « ومنذ ذلك الحين يستيقظ هؤلاء الذين يحاولون الإفلات من مصيرهم أو الذين يترددون فى التفتيش عن أرضهم ، أو الذين يريدون أن يتحرروا أو يحرروا أرضهم إن جنون الحرية قد ارتفع إلى أدمغتهم ، من ذا الذى ينقذك أيتهـــا الجزائر ، إن شعبك يمشى على الدروب سائلا عنك ! » .

وإذا نصتنا إلى ما يقول بقية أبطال الرواية أمثال حامد السراج الذى أوجد فى الأذهان فكرة الثورة والاتحاد فى وجه المغتصب ، وابن أيوب الذى صاح وهو قابض على حفنة من أرض الجزائر : « سيأتى يوم يحاسبنا فيه أولادنا حساباً عسيراً ، وسيهبون لصب اللعنات علينا ، إنى أرى من خلال المستقبل أحفادى يكيلون اللعنات لجدهم ، إنى أراهم يتقدمون نحوى صائحين : الله أكبر ، الله أكبر ! » .

وابن أيوب نفسه يخاطب أهل قريته قائلا : « ألسنا غرباء فى بلادنا ، والله يا أصدقائى إنى أكلمكم كما أفكر ، إنهم

يظنون أننا نحن الغرباء . والغرباء هم أهل البلاد ، لقد استولوا على كل شيء ويريدون أن يصبحوا أسياداً أيضاً ، وجعلوا من واجبهم الحقد علينا ، نعم إنهم يجيدون فن الزراعة ، ولكن هذا لا ينفى كون هذه الأرض ملكاً لنا ، أفلا تعتقدون أننا قد حشرنا فى سجن وأخذوا برقابنا حتى استحال علينا التنفس . . . وفى كل يوم ينتزعون قطعة من لحمنا فيبقى مكانها جرح عميق تسيل منه حياتنا ، هم يصرعوننا رويداً رويداً ، يا جيرانى موتوا وأنتم تعملون ، ولا تتركوا أرضكم ، ولا تهجروا شبراً منها لأنكم إن هجرتموها هجرتكم وستبقون أنتم وأولادكم أشقياء مدى الحياة » .

إن هذه الأقوال وغيرها التى تشير إلى حنين الجزائريين إلى أرضهم المغتصبة وتمسكهم بها إنما تعبر عن معضلة كبرى نشأت بعد استيلاء الفرنسيين على الجزائر واستيطانهم تلك البلاد واللجوء إلى المصادرة الجبرية وتفكيك الملكية الفردية وتبديد الأوقاف وتشجيع الهجرة الاستعمارية ، ولكن هذه الأساليب وإن أدت إلى تجريد الجزائريين من مصدر قوتهم فقد خلفت فى نفوسهم روح المقاومة يصفها أحد أبطال الرواية على بن رباح الذى خاطب المعتدلين من قومه قائلا : « إن

الرجال عندنا صنعوا من معدن عال كريم ، كما أن القلب سليم من كل شائبة إن جميع أنواع البؤس والشقاء التى عرفناها لم تنل منا ، وليس هذا اليوم الذى تطأطئ فيه رؤوسنا ، إن كل رجل حولك هو مخزن بارود تكفيه شرارة لينفجر ! » .

إن هذه الأفكار التى سرت بين الفلاحين سريان النار فى الهشيم قد أوجدت أسساً للثورة والوعى الاجتماعى ، وبدأ الفلاحون يشكون فيما بينهم من ضآلة الأجور التى يدفعها المستعمرون الذين جمعوا ثروات البلاد فى أيديهم ، ثم أخذ التذمر فى التوسع حتى عم الريف « جو لا يوحى بالطمأنينة والهدوء » فوقع إضراب العمال الذين يعملون فى المزارع الفرنسية فجرد المستعمرون ومن ورائهم الحكومة قوى الأمن لمطاردة المضربين وإرهابهم والتنكيل بهم وفى الرواية مقاطع رائعة عن موقف المستعمرين من أهل البلاد ، وعن العقلية الاستعمارية وعلاقة المستعمر بالمستعمر القائمة على الازدراء والبغض والحقد .

كما أن فى الرواية لوحات أدبية فنية تثبت أصالة الكاتب ودقة ملاحظته وتجميده اللمحات الدقيقة الآبقة المعبرة عن نفسية أصحابها فى أسلوب مكثف رشيق يدل على امتلاكه ناصية اللغة الفرنسية .

فمن الصور المنتقاة قوله فى وصف نسوة يتشاجرن بشدة وضجيج : « كانت النسوة يتكلمن كلهن معاً ، كأنما نبت لكل واحدة فى وجهها فم إضافى ! » .

وقوله فى وصف الليل فى الريف : « لقد انتصب الليل فى كل ناحية . فكان كيلا تاما لا شق فيه ، ولا يشبه الليالى التى نراها فى المدن ، فهو هنا يحتكر الكون فيبدو كشىء موحش جامد ؛ ليس فيه من معالم الحياة إلا صراخ الحيوانات أو زئير الأرض ، وكان مصباح الزيت الذى أشعله الفلاحون بمثابة سور هزيل من الضياء ؛ ولكنه ضوء جاء من عندهم ، فمس حواشى الليل ! »

وقوله فى وصف المزابل التى يتراكض إليها الفقراء ليجدوا ما يأكلون : « وكانت المجموعات البشرية قد جهزت حملات حقيقية إلى الأمكنة التى تفرغ فيها عربات البلديات محمولها وكنت ترى إلى جوانب هذه المستودعات التى تشكل هضاباً جماعات من البشر توهمك بوجود قرى خيالية تفتحت على أكوام القمامة كنباتات سامة » .

هذا هو محمد ديب فى روايته « الحريق » وهو بذلك لا يقل إبداعاً ونبوغاً عن أكبر الروائيين الأوربيين فى العصر

الحاضر بله الشرقيين . .

قلت : إن محمد ديب عزم على تصوير حياة الجزائر الاجتماعية فى سلسلة من الروايات تهدف كل واحدة منها إلى ناحية من حياة الشعب الجزائرى ، وها نحن أولاء نصل بعد « البيت الكبير » و « الحويق » إلى رواية « النساجة » التى صور بها فئة عمال النسيج الجزائريين . وقد ركز روايته فى ورشة يعمل بها عدد من العمال وجعل محور الرواية كما فى روايته السابقتين الولد عمر الذى تتفتح شخصيته على مظاهر الحياة القاسية التى يحياها بنو قومه ، ومعه أمه « عانية » تلك الأرملة المسكينة التى قضت حياتها فى فاقة وجهد وبلاء وصبر على الفقر والحرمان لتعيل أولادها ؛ وهى فى كل ذلك راضية ، مستسلمة لمشيئة الأقدار ، تستمد من هذا التسليم والخضوع قوة على مغالبة الشقاء ، فهى مثال للأم الشجاعة الفقيرة المخلصة لدور الأمومة التى يكثر أمثالها فى الطبقات الشعبية وهى ذاتها التى أنطقها محمد ديب بمثل هذه العبارة : « لقد ولدنا على هذه الأرض اللعينة كما تولد المخازى ، وتغذينا الحثالة ، وهجرنا كما يهجر المنبوذون ، حتى خبزنا فهو أسود سواد الليل الذى يحيط بنا ! » .

تجرى حوادث الرواية سنة ١٩٤٤ إبان الحرب الأخيرة ، ولم تكن إفريقيا الشمالية بمنجى عن شرور هذه الحرب وويلاتها ، فقد ازدادت الحالة الاقتصادية والمادية سوءاً على سوء ، وعم الفقر والقحط ، ووقفت الأحوال ، واشتدت الوطأة على الكادحين وظهر الاستعمار فى صورته السوداء الرهيبة .

ومن الطبيعى أن تكون مهنة الحياكة فى بلاد مستعمرة كالجزائر كغيرها من المهن فى مرحلتها البدائية أولا ، وأن يكون أربابها فى عصر الآلة والمعامل طبقة عمالية فقيرة محرومة تتجسد فيها معانى بؤس الجزائريين وعوزهم . ومن الطبيعى أيضاً أن تكون هذه المهنة مورد رزق لكثير من الأسر ، يتعاطى الرجال الناحية الفنية العملية منها ويعمل النساء فى ندف الصوف وغزله ، يعملن كعانية أم الولد عمر حين « كانت تجلب جزات من الصوف الملىء بالدهن ، والمثقل بالتراب والمصالة والبعر ، فتنظفها وتحضرها ثم تحمل بعد أيام بقدر ما تسمح لها قوتها رطلا أو رطلين من هذا الزغب الحليبى إلى سوق الغزل » .

وقد حلا لأحد الكتاب الفرنسيين أن يقارن بين حالة

النساجين في الجزائر وبين نظرائهم في فرنسا فوجد أن أحوال هذه المهنة سنة ١٩٤٤ تشبه تماماً ما كانت عليه في فرنسا منذ مائة عام ، فظروف العمل السيئة واحدة ، وبؤس العمال واستغلالهم دون شفقة أو رادع من قبل أرباب العمل القساة الجشعين واحدة ، وإهمال الدولة لحقوقهم ورعايتهم واحد ، بل قد استطاع أن يجمع أقوالا وأوصافاً لكتاب فرنسيين أحرار يصفون فيها هؤلاء العمال منذ قرن وكيف تطابق ما قاله محمد ديب في وصف مواطنيه ، ولعل أروع ما روى قول الشاعر هوغو عن لسان هؤلاء الكادحين :

منذ طلوع الفجر حتى المساء
ونحن نقوم دوماً في السجن ذاته
بنفس الحركة
جالسين القرفصاء تحت أسنان آلة كئيبة
مستسلمين لعمل مضن مرهق
يمسك العمر بين براثنه
عمل ينتج الثروة يخلقها البؤس
أو قول دوبون في أنشودة العمال .

نحن فى ثياب رثة نعيش فى الحذر
وتحت السقائف وفى الخرائب
نعيش مع البوم ومع اللصوص
أصدقاء الظلام .

نحن فى أقبية مدينة « تلمسان » حيث ورشة المعلم ماهى بو عنان ، يعمل النساجون فى مكان رطب يهبط إليه المرء فى بضع درجات ، يتسرب إليه النور من كوة صغيرة فى أعلى الحائط حتى بات القبو فى شبه ظلام ، وبات من يعمل فيه « كالبوم عششت فى قبو نصف مظلم » يعملون منذ طلوع الفجر حتى المغيب ، عملا مضنياً ، متواصلا ، يتقاضون عليه أجراً زهيداً يكاد لا يكفى ثمن الخبز « يمشون حفاة ، فى قمصان وسراويل مهرئة ملوثة بالأصبغة ، يستحرون فى النسج بشكل ضار مغلق » .

فى هذا المكان الذى ينطفئ فيه العمر والبصر تمر الأيام ، وتنساب الساعات بين الكلل والملل من حياة لا غاية لها ولا طائل تحتها ، ولم يكن الولد عمر يعلم أن مهنة النسيج ستكون حلقة من حلقات بؤسه إلا يوم صدم لأول مرة حين رق صاحب الورشة لتضرعات أمه وقبل أن يشغله عنده فى القبو فقد « هبط

obeikandi.com

عمر درجات السلم الأخيرة حيث وقف . فوجد نفسه فى وسط القبو . فنشبت إلى أنفه رائحة رطوبة شبيهة بأنفاس بهيمة فلصقت بوجهه ، فكاد الولد يختنق ، وكان القبو معتما ؛ وفى الحال أسف عمر على عهد الأزقة حتى صار يفضل التسكع تحت المطر المنهمر على أن يختنق فى هذا المكان ، فتردد ، وتملكه ميل جنونى للصعود على السلم والهرب . ولما اعتادت عيناه الرؤية فى القبو المعتم وجد أن العمال ينظرون إليه شزراً ، تبدو عليهم جميعاً ملامح الإعياء والاصفرار فصاح عمر : إن المعلم أرسلنى لأعمل هنا حلالا للغزل » .

فى هذا القبو كانت تجرى حياة هؤلاء العمال ، حياة رتيبة ، كئيبة ، يتخللها بين وقت وآخر ومضات من المرح والانطلاق وسرعان ما يعود جوّ القبو بعدها إلى سابق حالته من الكآبة والاستسلام إذ ليس من السهل كما يقول محمد ديب « أن يعتاد المرء على الضحك » .

إن من يقرأ الرواية لا يسعه – مهما أوتى من التجلد والقدرة على إسكات الضمير الإنسانى – إلا أن يشفق على هؤلاء المساكين الذين سدت فى وجوههم منافذ الأمل ، وضاقت سبل العيش ، وتوزعهم اليأس القاتل من جهة والتمرد الخافت الحائر

من جهة أخرى . فإن العم صقالى يقول لرفيقه بلهجة الحزين : ما أكثر ما نتألم فى هذه الدنيا ! فيجيبه رفيقه حمدوش : ماذا يفيدنا أن نؤدى عملنا بأمانة ، وماذا جلب لنا هذا العمل . . . الريح . . . أما رفيقهما عباس فلم يكن أقل يأساً فهو بعد أن استعرض حياته قال : « من الجائز أننا عرفنا بضع ثوان من السعادة ، ولكن كم إلى جانب ذلك من أيام سوداء ، لقد حرمنا كل شىء ، ونلنا نصيبنا من اليأس وضربات القدر ، فقد لقينا لقاء دقائق من الفرح محيطاً من المرارة . . . إن نفوسنا شبيهة بهذا القبو يعيش الأحرار على سطحه وفى باطنه الأرقاء ، وليس كسب قطعة نقود إضافية هى التى تهم العبد الرق ولا المطالبة بكسرة خبز . . . ! »

ولم يكن هؤلاء العمال كلهم واعين لحالتهم ، شاعرين بانحدارهم إلى قرارة العبودية الاجتماعية ، بل كان منهم من يعتقد أنهم خلقوا هكذا ، وليس من الممكن أن تكون إلى جانب حياتهم أفضل وأحسن ، فهم يعيشون فى قدرية مريحة جعلت بعضهم يقول : « إن الله قد ولى وجهه عنا ، وكل شىء تردّى ، فإن الفقير غدا أفقر من ذى قبل والخبز أغلى ، تلك هى حالنا . . . إننا سننال نصيبنا فى العالم الثانى ، يجدر بنا

ألا ننتظر من هذه الدنيا شيئاً » .

على أن هناك فريقاً آخر أكثر وعياً وأصدق حسا ، تضطرم فى نفوسهم ثورة نفسية عارمة ؛ عنيفة يستشفون من خلالها أحداثاً هائلة تعيد إليهم إنسانيتهم وحقوقهم المغتصبة ، ألم يقل أحدهم : « لقد هبطنا إلى الحضيض ، ولن نستطيع العودة إلى إنسانيتنا بالطرق العادية ؛ وسنجبر على قلب العالم بل على إرهابه . . . إن شعبنا قد أهين وسيخرج منه شىء هائل . » وتتجلى هذه الثورة فى شخصية المناضل عكاشة كما تجلت فى الروايتين السابقتين فى حامد سراج ، ويرتفع عكاشة هذا فى شكوه عن مستوى السخط النفسى والتمرد الفردى والتقريع المرير لبنى قومه إلى مستوى الثورة القومية الشاملة ، فهو كزميله حمزة يتفوه بأقوال معبرة عن الحالة الراهنة وعن الأحاسيس التى تجيش فى الصدور بقرب الخلاص فهو بعد أن كان يقول : « إننا لا نعرف من نحن ، ولعلنا المخلوقات الوحيدة فى الدنيا التى لا تعرف من هى ولا أين تسير ، وإذا سألت أية بهيمة فهى تستطيع إفهامك ما تريد ، ولكن نحن . . . إننا نمشى حفاة ، تلوح علينا علائم الاستياء ، وتكاد أسمالنا لا تخفى شقاءنا ، وليس فى رؤوسنا سوى الفتات وفى معدنا الدرن » إذ به

يقول بعد مدة : « أيتها الجزائر ! أين رجالك : من ذا الذى يوقظهم من نومهم ، إنه اليأس الشعبى الكبير : إنه اليأس الشعبى الكبير ! »

وتظل هذه الأفكار فى ارتفاع تصاعدى حتى تتبلور فى فكرة إصلاحية شعبية تخرج عن نطاق الأفراد والفئات والطبقات إلى نطاق قومى واسع يشمل الجزائر بأسرها ؛ لنستمع إلى العامل حمزة يخاطب رفاقه : « إن السياسة شىء معقد يعالجها كل حسب طريقته ، ويقول بعضهم إنه يجب إعطاء جميع الأراضى للفلاحين ، ويرى آخرون أن يعطى الفلاحون كل شىء وسنقسم بين أبناء الشعب بالعدل . وهكذا ترى أن السياسة تهتم برفاهية الشعب » فيجيبه عكاشة المناضل « إن الشعب هو ملكوت السموات ، وهو روح الدنيا النقية ، ولم يعلم أحد الشعب ، ومع ذلك فهو يحمل الحقيقة فيه ، تلك الحقيقة التى يبذرها بسخاء » .

ومن الغريب أن القارئ مع علمه بأن الحرب الدائرة اليوم فى الجزائر هى نتيجة حتمية للحالة التى كان يعانيها الجزائريون ، فإنه لا يلحظ فى رواية « النساجة » أية إشارة إلى تلك الحرب ، كما أنه لا يلحظ عند المؤلف أية نزعة صريحة لإبداء فكرة

أو مذهب بل ظل كغيره من كتاب الجزائر - ضمن العمل الفني - ينقل إلينا عن طريقه واقع أمته وقضايا حياتها في إطارها الإنساني دون اقتراح الحلول واستباق الحوادث ؛ وأعتقد أن التعبير الجميل يفعل في النفوس ما لا يفعله سوق الحجج وبسط البراهين ، وتعمد الإقناع .

إن محمد ديب وصّاف ماهر ، ومصور مفن ، يجيد التصوير الواقعي ، في رواياته صور قوية مكثفة تنطبع في في مخيلة القارئ وتطفو على ما عداها من الحوادث والأشياء ، ولعل من أروع ما تضمنته رواية « النساجة » منظر مواكب المتسولين التي أتت من الجنوب إلى مدينة تلمسان بعد أن جردتهم السلطات والقانون الاستعماري من أراضيهم فقد أفاق التلمسانيون يوماً فإذا بهم يصطدمون بهذه « الأشكال التي تشبه الأطياف الغريبة ، كانت جماهير المتسولين تزحف ببطء رجالا ونساء وشيوخاً وأطفالا فيحتلون المدينة ، وكان أكثرهم سليمي البنية ، ولكنهم من البؤس والإعياء إلى حد أنهم لم يعودوا بالنظرات الشزراء التي تضمرها لهم عيون السكان ، وكانوا يبدون إزاء المعاملة التي استقبلوا بها وقساوه رجال الأمن اللامبالاة ؛ وكأن قوة نجهل مصدرها تدفعهم إلى الأمام ، وهكذا انتشروا

بشكل غريب مجرد عن الحياة ؛ فيه تردد وفيه سأم . . . وكان الناس يتساءلون عما إذا لم يكونوا قد تسللوا منذ أمد قريب حتى عجت بهم مسالك البلد الرئيسية وشوارعها وساحاتها ، لا شك ! فى أنهم تسربوا إلى المدينة بفضل الأيام الماطرة السابقة .

ولم يعرف أحد الأسباب التى جذبتهم إلى المدينة ، هل جاءوا لطلب عيش افتراضى ؟ وعلى تخمين أنهم واجدوه ، فإنهم لم يتركوا البلد عائدين إلى أجحارهم التى لفظتهم فقد توطدوا فى قلب المدينة ، ولذا لم يفهم الناس شيئاً هل يسيرون فيها بدافع التطفل فى الظاهر ، لا ، فهم يأتون ثم يحلون حيث يطيب لهم المقام ، ثم ينظرون إلى الأشياء بعيون مطفأة . . . »

« على أن فى هؤلاء المتسولين وداعة وبعد عن الأذى ، ومن الإنصاف القول إنهم لم يقترفوا إثماً ، فهم ينظرون إلى المارة كبيرهم وصغيرهم بشىء من الزهد ، إنهم ينتظرون ، ماذا ينتظرون ؟ لا نعلم ، ثم يعودون إلى تسكعهم ، إنهم ينامون حيث يفاجئهم الظلام ، حتى إذا قص الهواء الجو شد كل واحد منهم أطماره على جسمه ووضع رأسه على حجر أو درجة نام » .

« كانوا يشاهدون فى كل مكان ، فى الأحياء السفلى من

المدينة ، وتحت الأفاريز ، وعلى مقربة من الأسوار ؛ وأمام الحمامات وعلى الأدراج ؛ وفى أسفل الجدران التركية على طريق « المشوار » وفى مداخل الفنادق ، ففى كل الأسواق تتنقل أشكالهم المهلهلة القاتمة القذرة ، يجررون أنفسهم فى كل مكان ، يحمل بعضهم بعضاً على الظهور ، حتى إذا عجزوا عن السير ارتموا على الأرض لاهثين من التعب ثم يصطفون على الأرصفة ، ولم تكن ما تضمنته واجهات المخازن من طرف فى نظرهم سوى توافه لا يؤبه لها ، وماذا يهمهم فإنهم قد ضربوا جذورهم وانطفأوا كما ينطفئ المشعل الخامد » .

وكان يخيل للناس بين وقت وآخر أنهم يفتشون عن شيء أضاعوه ، وكانت حركاتهم تشبه الزحف الخفى ، ثم لا يلبثون أن يعودوا إلى سكينتهم الأولى ؛ هم لا يمدون أيديهم للاستجداء ، وكانوا فى الأصح متكدسين فوق بعضهم ، يجلسون القرفصاء فى أماكنهم التى اختاروها ، هذا إذا لم يزحزحهم أهل المدينة عنها ، يلحظون منها حركات المارة . . حتى إذا حاول أحد أن يتصدق عليهم وجب أن ينحنى ليدس قطعة النقود فى باطن الكف » .

« لم يعد هناك أى حاجز يحول دون زحفهم المتلاحق الذى أوصل جحافلهم إلى الأحياء النظيفة والأسواق التجارية وأقسام

المدينة الشريفة «حيث بيوت الأوربين التى تعكس أنوارها فى الليل الحياة السعيدة الهادئة» يهيمون دون هدف ، ودون أن يأبهوا بالمطر المنهمر الذى يغرقهم كالمرق ، كانوا يهيمون وأحداقهم ميتة ، وأيديهم تستجدى بحركة عفوية ، ينفرون من مخابئهم كامدى الألوان ، ثم يعودون بعد لحظات من حيث أتوا كأن العدم الرطب قد قاءهم » .

« وكثر عدد الأموات بينهم ، وكم مسكين لفظ نفسه الأخير دون دمدمة . . . وكان يفاجأ بعضهم وهو يزحف دون وعى نحو مخبأ مجهول ، ثم يغيبون عن الأنظار . . . إن هؤلاء الناس يودعون الدنيا باحتشام مثالى كأنهم بذلك يعتذرون عن موتهم » .

إن هؤلاء المساكين الذين أثاروا اشمئزاز الأوربيين وتقززهم قد وجدوا عند مواطنيهم بعد أن زال الدهش والاستغراب من غزوهم المفاجئ كل عطف ورعاية ، وعندها تجلى التماسك الاجتماعى والشعور الأخوى الذى يوحد القلوب والمشاعر ويربط بين أهل الوطن الواحد برباط الكره للغريب المحتل أصل هذه الشرور والبلايا ، فقد كنت تسمع عندما تجمع الناس حول رجال الأمن يريدون إجلاء المتسولين عن البلد ، فكأن وجودهم

قد ذكر مواطنيهم بما هم فيه من بؤس وبلاء : « إن هؤلاء المخلوقات ليسوا بحشرات ، وإنما الحشرات هم الذين غزوا هذه البلاد فجعلوا إخواننا هكذا . » وقال آخر : « صدقونى يا إخوتى ! إن شقاءنا ليس ابن يومه ، فهو آت من بعيد ، ولم القلق والذعر !؟ » حتى إن عانية أم الولد عمر كان لها نصيب فى التعبير عن شعورها فهى القائلة عند ما هب أهل البلد لفتح أبواب دورهم لمساعدة إخوانهم المشردين : « هم إخواننا بالدم ، وضيوف أرسلهم الله إلينا ، فأهلا بهم وسهلا ، نحن نضيفهم ولو لم يكن عندنا سوى الماء ، فيعلمون بذلك أننا محرومون مثلهم ، إن الرحمة لا تزال موجودة فى هذه الدنيا ، ولن يقال إننا طردنا أمثالنا لأننا نملك مأوى وهم لا يملكونه » .

إن هذا التساند العاطفى هو نقطة تحول فى حياة الشعب الجزائرى ، بل التباشير التى تسبق الصبح المضىء ، وهذه كلها دلائل على الوعى واهتزاز القلوب بالأمل ، أمل الخلاص من العبودية والعودة إلى اعتلاء السلم الذى انحدر منه الجزائريون إلى هوة اليأس والاستكانة والهوان ، فبعد أن قال العامل عكاشة : « إن الحياة هنا كالرمال تملأ بها الأيدى ولا يبقى منها شىء » وبعد أن يقول عباس : « إن حياتنا من الضيق والحرج بحيث

تجن بها بقة ، إن حياتنا لسيئة سيئة جداً » أصبحنا نسمع حمدوش العامل يقول بلهجة العزم والجد : « كفانا عيشاً كما عشنا ، ولا قيمة بعد اليوم إلا للعمل » .

تلك هى الطلائع الشعورية التى مهدت للثورة التى يشب أوارها على أرض الجزائر ، ولاشك فى أن شعب الجزائر التى قاسى من ألوان الحرمان والذل ، وتحمل ما لم يتحمله شعب على وجه الأرض من الاضطهاد والتنكيل ، لن ترهبه هذه الحرب الإفنائية بويلاتها وتضحياتها وسيظل مثالا للتضحية والجهاد ورمزاً للقدرة الإنسانية الجبارة التى تفوق كل تقدير ومقياس .

ولا أدل على هذه الروح المتوثبة من ذلك الحوار الذى جرى بين الولد عمر والعامل الثائر حمدوش والذى أودع فيه محمد ديب فلسفة الروح الجزائرية التى تقوم عليها دعائم الثورة :

ــ ليس المراد أن تحتقر الناس ، فهم لا يريدون أن تشفق عليهم ، أنت تريد لهم الخير فى حين أنهم متعطشون للعدالة .

ــ ياله من استعداد سقيم ، هل تتصور سوء تأثير ذلك

عليهم : إنه لا يرفع عن كواهلهم ذرة من البؤس ، إن الشفقة لعمل سهل . .

ــ أنت تكره الناس !

ــ أريد أن يتعلموا ألا يطلبوا سوى سعادة واحدة . . . الحرية .

ــ هناك سعادة العيش . . . العيش ولا شيء سواه .

ــ إنك تهذى !

ــ مع أن الناس جميعاً يبغون هذه السعادة .

ــ ليس فى هذا روح ، إن ما يلزمنا أن نتعلم من جديد كيف تشعر بأننا أحرار ، ثم إن التعطش للعيش ينبت بعدها من جديد .

ــ يجب أن نفتح أعيننا ونرى .

ــ إن العالم قاس . . . إن جميع الذين ينزعون إلى أفكار سامية سمحة سيسحقون ، فلا عجب إذا رأينا الإعياء يستولى علينا قبل بدء المعركة .

ــ لا تنس إن إخواننا رزقوا نعمة التكيف مع الحالات كلها ، وأن شقاءهم لا يؤثر فيهم أبداً .

ــ لست أدرى ، إنهم فى الواقع يخجلون ، فهم يكتمون

شعورهم ويخفون آلامهم .

— كلا ! هذا غير صحيح ، إن قلوبهم ميتة .

— يجب أن توقظ هذه القلوب !

— إن ما يلزمنا هو أن نتعلم الحقد ، وأن نكون قساة القلوب .

— هنالك أناس يساعدون أمثالهم على أن يصبحوا أحسن حالا .

— ستكون واحداً منهم .

إن محمد ديب روائي موهوب ، وهو على عادته يجيد التحليل والكشف عن خفايا النفس الإنسانية كما أنه يجيد تصوير الشخصيات والأوساط الاجتماعية والمناظر المادية والعوارض الجوية ، وأسلوبه فى ذلك لا يقل نصاعة وحيوية عن أبطال رواياته مما يجعل محمد ديب فى طليعة كتاب الجزائر المعاصرين .

لنذكر بعض هذه الصور الموفقة ؛ قال يصف عانية أم الولد عمر وهى نائمة : « نامت وقد أسندت ظهرها إلى الحائط ، لقد عقصت منديلها ورفعته إلى قمة رأسها كصرة حمام ، وهبط فكاها وامتدت شفتاها فى حركة نفخ واسعة » .

قال يصف الريح فى يوم عاصف : « كانت الريح تهب من الغرب تارة ، ومن الشرق أخرى ، تقفز قفزات كبيرة محاولة تكسير المدينة ، ولكنها كانت تصطدم فى ثورتها العمياء

obeikandi.com

العنيدة بجميع المنافذ فتجدها مقفلة منيعة » .

وقوله : « كان زئير العاصفة يتلاشى فى المجال الليلى » .

وقوله : « كان الضباب قد احتضن المدينة طوال الليل ، ولما أشرق الصباح سطعت شمس فتية فى سماء كانون الثانى كأنها تلحس الأسواق » ومن تشبيهاته فى وصف متسول : « وكان بعضهم وقد تجمع على نفسه كالقنفذة ينام بلا انقطاع » .

وقوله فى وصف مطر غزير : « وكان المطر المتواصل يهز شعوره النهرية » .

وقوله فى وصف العامل شول : « وكان شول الرجل الألط (١) ، النحيل ، ذو الوجه الترابى والشعر المقصوص يبدو كأنه مقشة قديمة نتف قشها » .

وقوله فى وصف عمر فى ورشة الغزل : « كان يجر الخيوط كما لو كان يسحب أمعاء خروف مبعوج » .

وقوله فى وصف ولد ميت مسجى فى كفنه : « لقد تبين لعمر أن الكفن طويل جدا ، كأن الموت قد مط العامل الصغير وجعل منه الرجل الذى لن يكونه » .

إن رواية محمد ديب التى تصور ولادة روح الشعب الجزائرى لتغنى عن مئات الكتب والأبحاث التى كتبت عن الجزائر وقضية الجزائر .

---

(١) من سقطت أسنانه .